

موقف تركيا من إقليم كردستان العراق: استفتاء ٢٥ سبتمبر لم يكن جاداً

محمد الدجين

حصل استفتاء إقليم كردستان، في يوم الاثنين ٢٥ سبتمبر الماضي، على ما يفوق ٩٠٪ من الأصوات المؤيدة للانفصال عن العراق والاستقلال. هذا الحدث السياسي كان له وقعٌ على الدول الإقليمية، وأهمها تركيا، التي راحت تُشكك في انفصال الإقليم، وتعتبره أمراً غير قانوني، وتستنكره، وتراه تهديداً للأمن الوطني التركي والإقليمي^(١). وإضافة إلى تركيا، فإن العراق وإيران كان لهما الموقف نفسه تجاه الاستفتاء الذي جرى في إربيل، عاصمة الحكم الذاتي لإقليم كردستان^(٢).

تركيا لديها صراع قديم مع حزب العمال الكردستاني، وخصوصاً في الجزء الجنوبي والشرقي من تركيا، وقد يصل إلى شمال العراق؛ علماً بأن تركيا والعراق بينهما تعاون عسكري متأهب لأي أحداث أمنية قد يسببها المتمرّدون الأكراد على الحدود بين البلدين. أما ما حدث مؤخراً في استفتاء إربيل بالتصويت بـ «نعم» أو «لا» على الاستقلال والانفصال عن العراق فقد كان له أثر كبير، وخصوصاً على تركيا، وطرح تحدياً للحكومة التركية حول كيفية التعامل مع إربيل في هذا الموضوع الحساس. وتخشى تركيا أن يكون الاستفتاء سبباً مباشراً في إثارة الأكراد في المناطق الجنوبية والشرقية من البلاد. في يوم إعلان نتائج الاستفتاء، أدانته القنصلية التركية في إربيل، وقالت: إن الاستفتاء ليس أمراً خطيراً على الإقليم فقط؛ بل «نحن في مجلس الأمة التركي الكبير (البرلمان التركي) نؤمن أن هناك عوامل إرهابية تسعى لاستغلال الظروف التي ستتبع عملية الاستفتاء، ثم تحاول فعل ما يهدد أمننا الوطني»^(٣).

وفي تعليق آخر صادر عن الحكومة التركية قبيل إجراء الاستفتاء، أيدت تركيا قرار البرلمان العراقي في بغداد الذي اعتبر عملية الاستفتاء غير قانونية وغير دستورية. وكانت تركيا قد دعمت العراق سابقاً في أمور وتحديات عديدة، سياسية واقتصادية، من أهمها قضية إقليم كردستان وحلم الإقليم بالاستقلال عن الدولة العراقية.

البرلمان التركي يوافق على تمديد عمل الجيش التركي على الحدود

يُمثّل العراق عاملاً مهماً في استقرار الأمن الوطني التركي، وخصوصاً على الحدود الشرقية والجنوبية من تركيا التي توجد بها أغلبية كردية. ولهذا السبب وافق البرلمان التركي، قبيل موعد الاستفتاء، على تمديد مهلة عمل الجيش التركي على حدود

(1) Martin Chulov, "More Than 92% of Voters in Iraqi Kurdistan Back Independence," September 28, 2017, <https://www.theguardian.com/world/2017/sep/27/over-92-of-iraqs-kurds-vote-for-independence>

(2) "Turkish MP Slams Kurdish Referendum as 'Neither Constitutional, Nor Legitimate,'" September 27, 2017, <https://sputniknews.com/analysis/201709271057759463-turkish-mp-kurdish-referendum-illegitimate/>

(3) No. 297, 25 Eylül 2017, İkby Referandumu Hk., September 9, 2017, Türkiye Cumhuriyeti Dışişleri Bakanlığı, <http://erbil.bk.mfa.gov.tr/ShowAnnouncement.aspx?ID=335678>.

العراق (وكذلك سوريا)، وهو ثاني أكبر جيش في حلف شمال الأطلسي (الناتو). وقبل أسبوع من ظهور نتائج التصويت، كان الجيشان التركي والعراقي يقومان بمناورات عسكرية على حدود البلدين. هذه المناورات وتوقيتها بعثت رسالة من الحكومة التركية عن استعدادها التام للتدخل في حال حدوث مشكلات أمنية، كما أنها رسالة من الحكومة العراقية تُوضّح تعاونها ودعمها للموقف التركي حيال هذا الموضوع، وكذلك دعم تركيا لعراق مُستقرٍّ وموحد.

من جانب آخر، استفادت تركيا من هذه الأحداث، التي تُعدُّ تهديداً لأمنها الوطني، بالحصول على دعم البرلمان التركي لتمديد وجود الجيش التركي على الحدود العراقية (والسورية)^(٤). الوجود العسكري التركي، بمختلف معداته الخفيفة والثقيلة، إلى جانب الدعم العراقي يجعل لتركيا اليد العليا في القرارات المصرية، وأهمها قضية انفصال إقليم كردستان. وقد يتسبب هذا الانفصال في حدوث الأمر نفسه لمنطقة الأكراد في الجنوب التركي؛ لذا فإن الدعم المتبادل بين العراق وتركيا، وكذلك وجود قوات عسكرية على الحدود، هي عوامل ضغط على الإقليم في حال مطالبته بالاستقلال.

تركيا والعراق لم يكونا وحدهما

رغم أن مسعود برزاني، حاكم إقليم كردستان، كان مصمماً على إجراء الاستفتاء، إلا أن هناك دولاً كثيرة ومنظمات متعددة لم تؤيده. فإلى جانب تركيا والعراق، أدانت إيران الاستفتاء بشدة، وأكدت أنه قد يسبب مشكلات أمنية في العراق والدول المحيطة. كما أن إيران تخشى أن يكون لاستقلال إربيل عن العراق تأثير على مناطق الأكراد الذين يُوجدون بكثرة في غرب إيران، ويعانون مصاعب اقتصادية وسياسية. ولهذا السبب، هدّدت إيران بإغلاق حدودها مع إقليم كردستان. وفي حال إغلاق الحدود مع الإقليم، ستكون هناك تداعيات اقتصادية مباشرة على الإقليم، وخصوصاً مدينة السليمانية الأقرب إلى الحدود الإيرانية. تركيا والعراق وإيران يستنكرون فكرة عمل استفتاء للانفصال عن العراق، وهم يتشاركون في ذلك لوجود الملايين من الأكراد الذين يعانون التهميش؛ ما يُسهّل استمالتهم لعمل مماثل قد يهدد الأمن الوطني لهذه الدول.

أما الحكومة المركزية في بغداد فتعتقد أن ما يحدث في إربيل يهدد استراتيجية بغداد الاقتصادية، لاسيما أن منطقة كركوك تقع ضمن سيطرة حكومة إربيل منذ عام ٢٠١٤م، وتخشى بغداد أن تقوم إربيل بضمّها مع حقول النفط الموجودة هناك إلى أراضي الإقليم. كما أن المجتمع الدولي أدان بشدة عملية التصويت واعتبرها تهديداً لوحدة العراق والدول المجاورة^(٥).

هناك دول عديدة أيدت حكومة بغداد وأدانت عملية الاستفتاء، ومن ضمنها: الولايات المتحدة الأمريكية، حيث رأت أن هذا الحدث سوف يؤثر على أمن العراق بشكل مباشر، وبشكل غير مباشر على دول الجوار^(٦). وفي الوقت نفسه ناشدت المملكة العربية السعودية مسعود برزاني أن يتحلّى بالحكمة، وألاً يزيد التوتر مع العراق^(٧). أما الإمارات العربية المتحدة فقد أشارت على لسان وزير الدولة للشؤون الخارجية، أنور قرقاش، إلى أن الفيدرالية في العراق أفضل من فكرة الانفصال؛ داعياً إلى الاتحاد مع العراق والدول المجاورة لحفظ الأمن والسلام في المنطقة^(٨).

(4) "Turkey votes to extend mandate for troops in Iraq and Syria," Euronews, September 9, 2017, www.euronews.com/2017/09/23/turkey-votes-to-extend-mandate-for-troops-in-iraq-and-syria

(5) David Zucchini, "On Eve of Kurdish Independence Vote, a Warning from Turkey," *New York Times*, September 23, 2017, <https://www.nytimes.com/2017/09/23/world/middleeast/turkey-kurds-independence-referendum.html>

(6) David Zucchini, "Pressure Mounts on Iraqi Kurds to Cancel Independence Vote," *New York Times*, September, 21, 2017, <https://www.nytimes.com/2017/09/21/world/middleeast/iraqi-kurds-independence-vote.html>

(7) "Saudi Arabia Urges Barzani to Call off Kurdish Independence Referendum," Arab News, September 21, 2017, www.arabnews.com/node/1164416/middle-east

(8) "UAE's Gargash to Kurdistan: Federalism Is More Viable Than Separation," English Al Arabiya, September 23, 2017, <http://english.alarabiya.net/en/News/gulf/2017/09/23/UAE-minister-Gargash-Federal-system-better-alternative-to-separation-.html>

ماذا يمكن لتركيا أن تفعل بعد الاستفتاء؟

هناك الكثير من العواقب التي يمكن أن تعاني منها إربيل بعد عملية التصويت. فتركيا لديها عدد من أوراق الضغط على إقليم كردستان بالتعاون مع حكومة بغداد. والعراق أول دولة تقوم بتهديد إربيل، وحسبما صرّح حيدر العبادي رئيس الوزراء العراقي، فإنه سيكون هناك حظر جوي على الإقليم، ولن يُسمح للطائرات بالإقلاع أو الهبوط في مطارات إربيل والسليمانية؛ إلا في حالات إنسانية واستثنائية. أما تركيا فقد علّقت الرحلات إلى إربيل والسليمانية بعد قرار العراق بيوم واحد في ٢٩ سبتمبر. وكما جاء في تعليق للحكومة التركية على هذا الأمر: «في هذه الحالة، لن يكون أمراً ممكناً للطيران التركي، ولن تستطيع شركتنا أطلس جلوبال وبيجاسوس تسيير رحلات إلى إربيل والسليمانية بدءاً من تاريخ ٢٩ سبتمبر»^(٩).

تشارك تركيا العراق معبراً حدودياً مهماً، هو «خابور»، وهو المنفذ الأهم لشمال كردستان لاستيراد البضائع وتصديرها مع تركيا والعالم؛ لذا فإنه يشكل ورقة ضغط مهمة في يد الحكومة التركية على إقليم كردستان. الرئيس التركي رجب طيب إردوغان أعلن أنه: إذا تم إغلاق معبر «خابور» فسوف يؤثر ذلك سلباً على الإقليم، ويسبب له خسائر فادحة اقتصادية وتجارية. لذلك تعلم تركيا جيداً أن إغلاق المعبر الحدودي سيكون له تأثير مباشر على إربيل والإقليم، كما أن اعتماد إقليم كردستان على معابر حدودية مع دول تعتبر استقلال الإقليم أمراً يهدد أمنها الوطني، يجعل حكومة الإقليم تعتمد اعتماداً تاماً على هذه المعابر في العملية التجارية واستيراد البضائع وتصديرها. وتستند تركيا إلى هذه الاستراتيجية في التعامل مع الإقليم لمعرفتها مدى اعتماده على هذا المعبر الحدودي، كما أن إغلاق الحدود التركية في وجه إقليم كردستان سوف يؤثر مباشرة على تصدير البترول من الإقليم (عبر مدينة كركوك) إلى الأسواق العالمية؛ حيث ٨٥٪ من صادرات البترول تمرّ عبر تركيا^(١٠).

استفتاء إربيل لم يكن أمراً جاداً

إربيل هي عاصمة إقليم كردستان الذي يقع ضمن الأراضي العراقية ويتمتع بحكم ذاتي ضمن الدولة. ووجود الأكراد في هذه المنطقة القريبة شمالاً من أكراد تركيا، وشرقاً من أكراد إيران أمر مثير للتوتر للعراق والدول المجاورة. ومع أن عملية الاستفتاء على الانفصال عن العراق حصدت نتائجها يوم الاثنين ٢٥ سبتمبر بـ«نعم» بنسبة تفوق ٩٠٪، بحسب مصادر كردية؛ إلا أن هذا الاستفتاء غير قانوني لعدم حصوله على موافقة البرلمان العراقي. ليس هذا فحسب؛ بل إن عملية التصويت لم يتم الإشراف عليها وتنظيمها من قِبَل المنظمات العالمية. موقف تركيا وقراراتها حيال تعليق الرحلات الجوية، والتهديد بإغلاق معبر «خابور» الحدودي ما هو إلا نتيجة مباشرة لعملية الاستفتاء. هذه القرارات والعقوبات تأتي للتأثير على إربيل وتذكيرها بعدم سيطرتها الكاملة على المناطق المهمة داخل الإقليم، وكذلك المعابر الحدودية إلى العالم.

هذا الاستفتاء لم يكن أمراً جاداً، فقد قال مسعود برزاني لمصادر إعلامية: إن الهدف من هذا الاستفتاء هو فقط معرفة مَنْ سيُصوّت ويدعم، من أكراد الإقليم وأكراد المهجر، فكرة استقلال الإقليم عن الأراضي العراقية. أزمة الاستفتاء أكدت لتركيا ودول المنطقة أن هناك تحديات مستمرة مع طرح فكرة انفصال الإقليم. وبطبيعة الحال، أثبتت تركيا أنها مستعدة لفعل ما يتطلبه الأمر لحل مشكلة الاستفتاء؛ بشرط ألا يمسّ ذلك الأمن الوطني التركي. البرلمان التركي أجاز تمديد وجود الجيش التركي على الحدود التركية العراقية، وكذلك القيام بمناورات عسكرية مع الجيش العراقي، وأصبح أكثر قرباً من إقليم كردستان. وتركيا لا تدعم استقلال الإقليم؛ بل تعتبره تهديداً لأمنها الوطني، كما أن هناك دولاً أخرى تدعم تركيا في هذا الأمر؛ كالولايات المتحدة الأمريكية، والمملكة العربية السعودية، والإمارات العربية المتحدة، إلى جانب العديد من المنظمات

(9) Abdullah Ayasun, "Turkey to Suspend Flights to Iraqi Kurdistan after Referendum Vote," GlobePost, September 27, 2017, www.theglobepost.com/2017/09/27/turkey-flights-kurdistan/

(10) "Turkish Threat to Block Kurdistan Oil Exports Drive Prices to 2-Year High," Rudaw, September 27, 2017, www.rudaw.net/english/business/26092017

الدولية والإنسانية التي ترى أن الاستقلال سوف يؤثر سلباً على الحالة الأمنية والسياسية والاقتصادية في دول المنطقة، وكذلك الحالة الإنسانية في منطقة الإقليم. تركيا التي هي عضو في منظمة الناتو، ترى أن بقاء العراق موحداً ومستقراً يعني تركيا مستقرة.

في خضم هذه التوترات مع إقليم كردستان هناك مصالح سياسية واقتصادية مهمة لتركيا مع العراق والإقليم. فحسبما يذكر معهد الإحصاء التركي، فإن حجم التجارة المتبادلة مع العراق يصل إلى سبعة مليارات دولار أمريكي⁽¹¹⁾. والعلاقات الاقتصادية المباشرة بين تركيا والعراق والإقليم، وتأثير عملية الاستفتاء وفكرة الاستقلال، أوجدت اتفاقاً تركيا عراقياً على أن يبقى العراق موحداً بمناطقه كافة لدعم مصالح البلدين المشتركة. ومن المهم الإشارة إلى المصالح المباشرة بين تركيا وإقليم كردستان حيث تجد تركيا سوقاً مفتوحة لتسويق البضائع والمنتجات التركية، ولهذا السبب لم تقم بإغلاق معبر «خابور» الحدودي رغم تهديد الرئيس التركي؛ بل لن يتم إغلاقه رغم الظروف الحالية، كما ذكر وزير الجمارك والتجارة بولنت توفنكجي في مقابلة أجراها مباشرة مع قناة A Haber التركية أكد فيها أن معبر «خابور» لن يتم إغلاقه وسيبقى متاحاً للحركة التجارية بشكل آمن، وأن التفكير في إغلاقه سيكون مرهوناً بالتطورات الحادثة⁽¹²⁾. أزمة الاستفتاء لم تؤثر حتى الآن على الحالة الأمنية داخل إربيل أو الإقليم، أو الدول المجاورة، والعلاقة التجارية بين تركيا والإقليم مستمرة مالم تحدث تطورات تستدعي إجراءات جديدة. وفيما يخص العقوبات التركية حيال تعليق الرحلات الجوية إلى إربيل والسليمانية، وقيام العراق بتعليق مطار إربيل، فإن التدخل العسكري أمر غير محتمل بناءً على المعطيات الحالية؛ غير أن العقوبات وتعليق الطيران قد تستمر حتى تبادر إربيل إلى قبول المفاوضات مع الأطراف الأخرى، والاتفاق على المسائل الأمنية، وربما تتعهد إربيل بعدم محاولة إثارة الدول المجاورة مستقبلاً بقضية الاستقلال.

(11) Berza Şimşek, “Habur sınır kapısı kapatılırsa ne olur?” BBC Türkçe, 27 Eylül 2017, www.bbc.com/turkce/haberler-turkiye-41413398

(12) Bakan Tüfenkci'den Habur açıklaması, A Haber TV, September 27, 2017, www.ahaber.com.tr/webtv/gundem/bakan-tufenkciden-habur-aciklamasi.